رحيل

ميرنا الشدياق

زياد الرحباني

تمرّد الفن ومرآة الوطن وإبداع الفنان في وجه الظلم والحقيقة من دون أقنعة

في صبيحة 26 تموز 2025، اسدلت الستارة على احد اكثر الاسماء اثارة وصدقا في التاريخ الفني اللبناني والعربي: زياد عاصي الرحباني. رحل زياد ورحل معه زمن من الجرأة والصدق والتمرد، زمن كان فيه المسرح ساحة احتجاج، والاغنية بيانا سياسيا، والضحكة طريقة للبكاء. لم يكن زياد مجرد فنان موهوب، بل كان حالة ثقافية وانسانية

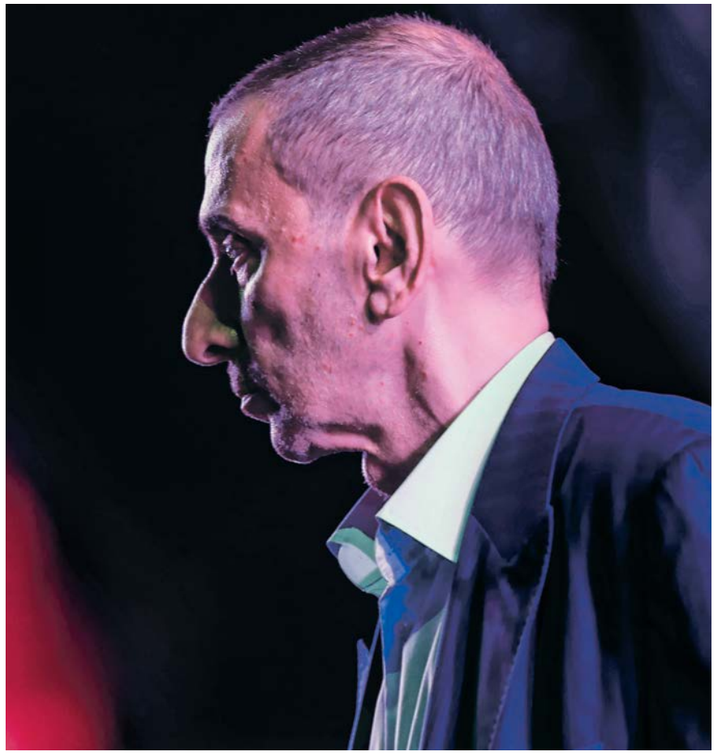

ما ان انتشر خبر رحيل زياد الرحباني حتى عاد الناس بذكرياتهم الى الفنان الذي علمهم ان الفن موقف لا مهنة، وعادوا يستمعون الى "راجعة باذن الله" كأنهم يسمعونها لأول مرة. واستعادوا مشهد زكريا في "بالنسبة لبكرا شو؟" وهو يصرخ: "بدنا نحكي الحقيقة لو شو ما كانت".

حتى الجيل الجديد من الشباب الذي لم يعش الحرب وجد نفسه في زياد، لأنه كتب عن الانسان، والمقهور، والوحيد، والعاشق الخائب، والسياسي المنافق، والموظف المحبط، والفنان المنكسر... عن كل ما نحن.

هو المؤلف والمخرج والممثل والملحن والموزع، حالة فنية فريدة يصعب تأطيرها او تشبيهها.

لم يهادن، لم يساير، لم يجامل. عاش كما كتب، كما لحن، كما تنفس: حرا، ساخرا، موجوعا.

ولد زياد الرحباني في 1 كانون الثاني 1956 في بلدة انطلياس، في بيت موسيقي هو الاهم في تاريخ لبنان: بيت الاخوين رحباني وفيروز. هو الابن الاكبر لفيروز (نهاد حداد) وعاصي الرحباني.

في سن مبكرة، بدأ يلفت الانتباه، ويقال ان عاصي كان يشجعه منطقيا على تطوير رأيه الفني حتى في السادسة من عمره حين كان يشركه في تقييم الالحان إذ ادرك موهبته بعد ان استمع الى لحن دندنه الصغير ظانا انه سمعه من قبل، ليجيبه زياد بأنه من وحي خياله. لكن زياد لم يسر على خطى ابيه واعمامه حرفيا. بينما كانت اعمال الرحابنة تغني للضيعة والحلم والوطن المثالي، كان زياد ينظر بعين الشك الى كل شيء: الدولة، النظام، الحرب، الدين، وحتى الفن نفسه.

في عام 1967-1968 كتب اول ديوان شعري/ نثري بعنوان "صديقي الله"، نشره له والده ومنه بدأت الحكاية. حكاية زياد الطفل المشاكس المتمرد الذي يتناول مواضيع مثل علاقة الطفل بالله، واسئلة عن الحياة والموت، والام، والصداقة، بأسلوب بسيط وعميق في الوقت نفسه. يقول فيه مثلا:

"عندما ارسلوني يوما الى المدرسة، وكنت انتظر ساعة الرجوع، علموني هناك ان احكي مع الله "صديقي"، علموني ان أصلي. ما كانت تقوله لي امي، قبل ان أغفو في السرير، والريح في الخارج تخرب العالم، ما كانت تقوله كان احلى. لا اريد ان اصلي الا ما افهمه، لا اريد ان اصلي، دعوني

> **زياد الرحباني لم يهادن ولم يساير ولم يجامل**
>
> **انا مش فرخ البط عوام ولا مسبع الكارات.. بتمنى بس دق ع هالبيانو**

اصرخ، فوق الجبال الصخرية، في الوديان الساكتة، فتصرخ معي اين انت؟ دعوني اخبر الشجر، قصة صديقي، هذه هي صلاتي".

زياد الراحل يدخل اليوم الباب الاخر الذي ختم فيها ديوانه وهو طفل بالقول: "الايام ابواب على كل منها حارس، وقد كتب علينا ان نخلق كل يوم، وعلى كل باب قصة جديدة، نلهي بها الحارس ليفتح لنا الباب، الى باب آخر".

اول اعماله المسرحية "سهرية" عام 1973، التي كتبها وهو لم يتجاوز 17 عاما، كانت اعلانا صريحا عن فنان مختلف، متمرد، يستخدم اللغة العامية كما تقال في الشارع، ليكشف تناقضات المجتمع، ويقدم شخصيات عادية، مشبعة بالحكمة والالم. قدم من خلالها صوت المواطن البسيط وسخريته من الواقع بأسلوب جريء وغير مسبوق في المسرح اللبناني. تلتها "نزل السرور" (1974) وهي مسرحية ذات طابع رمزي تدور احداثها في نزل صغير يمثل لبنان، حيث تتصارع القوى ويهمش الانسان، فيها تجلت قدرته على تحويل المكان العادي الى رمز وطني. ثم اعمال اكثر جرأة مثل "بالنسبة لبكرا شو؟" (1978) وهي اشهر مسرحياته، تعري المجتمع اللبناني من الداخل عبر شخصية زكريا الذي يعيش تمزقات الحرب والحب والخذلان، مسرحية وكأنها كتبت لزمننا الحالي.

ثم "فيلم اميركي طويل" (1980) مسرحية تتناول الواقع اللبناني بطريقة عبثية، تدمج بين السياسة والوجودية، عالجت تأثير الحرب والفساد بأسلوب ساخر ومؤلم في آن معا. "شي فاشل" (1983) مثلت تحولا واضحا نحو المسرح السياسي الواقعي والنقد الاجتماعي بأسلوب ساخر، انتقد فيها النظام التعليمي والفساد الاداري". مسرحية "بخصوص الكرامة والشعب العنيد" (1993)، مراجعة ساخرة لما سمّي بالسلم الاهلي في لبنان، موجها نقدا لاذعا الى امراء الحرب وطبقة السياسيين الذين تقاسموا الغنائم على حساب الناس. اتبعها في العام التالي بمسرحية "لولا فسحة الامل" (1994)، شكلت ختاما لهذا الخط المسرحي، وقدمت شخصيات مرهقة لا تملك الا التعلق بأمل ضئيل، استمرارا لمزاج زياد المتشائم والواقعي.

تميز زياد بلغة متفردة. كان قادرا على قول الحقائق المؤلمة بأبسط الكلمات. حول العبارات اليومية الى ايقونات. عبارات مثل "بالنسبة لبكرا شو؟"، "الشعب العنيد"، "ما خلونا"، اصبحت جزءا من الذاكرة اللبنانية. لغته جميلة، فيها العامية البيروتية، والمفردات السياسية، والشتائم المهذبة، والتمرد المغلف بنكتة. كان دائما يسخر من نفسه ومن جمهوره، من النظام، من الخسارة والانتصار.

شارك زياد الرحباني كذلك في مسرحية "المحطة" بدور الشرطي، كما مثل لاحقا في مسرحية "ميس الريم" عام 1975 بدور شرطي أيضا، وشارك في حوار غنائي مع فيروز على المسرح ولحن المقدمة الموسيقية للمسرحية، وهي مقطوعة ادهشت الجمهور آنذاك لادخالها ايقاعات واساليب تلحين غير معتادة على عروض الرحابنة التقليدية.

في احدى حفلاته قال للجمهور بشيء من الانفعال: "انا مش فرخ البط عوام، ولا مسبع الكارات... بتمنى بس دق ع هالبيانو"، عاكسا ما كان طموحه بداية الحرب ان يصبح "بيانيست" وليس مؤلفا. كان البيانو بندقيته، والنغمة منشورا سياسيا.

بزغت الموهبة الموسيقية لدى زياد الرحباني باكرا. في الرابعة عشرة من عمره لحن اولى اغنياته بعنوان "ضلك حبيني يا لوزية" سنة 1971، التي ادتها المطربة هدى، شقيقة والدته، ثم جاءت فرصته الذهبية عام 1973 عندما عهد اليه بتلحين اغنية "سألوني الناس" لفيروز في اثناء مرض عاصي ودخوله المستشفى. كانت الاغنية جزءا من مسرحية "المحطة"، اذ كتب منصور الرحباني ◄

◄ كلماتها لتعبر عن غياب عاصي. نجح زياد في هذه المهمة نجاحا باهرا وحققت الاغنية انتشارا واسعا عن جدارة، وهو كان يبلغ من العمر 17 عاما. اتبعها بـ"نطرونا كتير ع موقف دارينا" في مسرحية لولو.

بعيدا من المسرح، ترك زياد الرحباني بصمة فنية عميقة في الموسيقى العربية، من خلال اعماله الخاصة او تلك التي قدمها لوالدته السيدة فيروز. في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، كان من القلائل الذين مزجوا بين الجاز والموسيقى الشرقية بشكل طبيعي، وكتب الحانا تمردت على النمط الكلاسيكي العربي، لكنها لم تفقد روحها وفرادتها.

كتب لفيروز "عندي ثقة فيك"، "بعتلك"، "ضاق خلقي"، "سلملي عليه"، وغيرها من الاغنيات التي خرجت عن المألوف اللحني والنصي. في تعاونه مع والدته، شكل زياد مرحلة جديدة في مسيرة فيروز، تختلف عن المرحلة الرحبانية الاولى التي كانت تتسم بالرمزية، الهوية اللبنانية الريفية، والحلم الشعري. في مرحلة زياد، اصبحت فيروز صوت المدينة، صوت الوجع، والنقد، واليأس، والامل. اغنيات مثل "كيفك انت"، "انا عندي حنين"، "مش فارقة معاي"، عبرت عن مشاعر الناس اليومية في ظل متغيرات ما بعد الحرب.

لحن لفيروز البومات كاملة مثل "وحدن" (1979)،

الذي حمل طابعا عاطفيا، والبوم "معرفتي فيك" (1987).

اصدر زياد اعمالا موسيقية خاصة به نالت اعجاب شريحة واسعة من الجمهور، خاصة الشباب. من ابرزها مقطوعة "ابو علي" (1978)، والبوم "هدوء نسبي" (1985) الذي قدم فيه توزيعا موسيقيا يمزج الجاز بالموسيقى الشرقية، "بما انو" اضافة الى البوم "مونودوز" (2006) الذي تضمن اغاني بصوته واصوات اخرى، تعاون فيها مع فنانين عرب كبار مثل لطيفة وسامي حواط وجوزف صقر .

لم تقتصر مساهماته على التلحين، بل شملت توزيع اعمال مثل الاغنية الملحمية "احمد الزعتر" لكلام محمود درويش وغناء خالد الهبر عام 1977، اضافة الى توزيع "مديح الظل العالي" عام 1987، والتي نفذت اوركستراليا.

واصل نشاطه الموسيقي بعد مسرحياته حتى ما بعد الحرب اللبنانية، حيث واصل العزف والانتاج ونشاطه في مهرجانات مثل مهرجان بيت الدين

عام 2010، اضافة الى حفلات صغيرة في ملاهي بيروت بهدف التدريب الموسيقي وليس الربح .

لم يخف مواقفه يوما، دعم قضايا الشعوب، وقف ضد الطائفية والاحتلال، وانتقد النظام اللبناني بلا هوادة. وفي المقابل، لم يدع الطهارة السياسية، بل كان واعيا لتناقضاته، صريحا في كشف ضعفه، ساخرا من ذاته بقدر ما يسخر من الطبقة الحاكمة. عرف بانتمائه السياسي اليساري، وكان يعتنق أفكارا علمانية وديموقراطية، ترافقت مع اعماله الفنية وافكاره المنشورة في الصحافة والبرامج الاعلامية .اطلق برامج اذاعية نقدية ساخرة يمتد نقدها الى السياسة والمجتمع والفساد من اذاعة "صوت الشعب" في منتصف السبعينات، مثل: "بعدنا طيبين، قول الله" و"تابع لشي تابع شي"، التي تناولت بشكل مباشر اولى سنوات الحرب الاهلية اللبنانية. وكتب في صحف مثل "النداء"، "النهار" و"الاخبار".

رغم شعبيته الكبيرة، لم يكن زياد يوما فنانا استعراضيا. بالعكس، اختار في السنوات الاخيرة الابتعاد عن الظهور الاعلامي، وقلل من نشاطه العلني. البعض اعتبر ذلك انعزالا، وآخرون رأوا فيه تمسكا بمبادئه، ورفضا للسطحية التي اجتاحت الوسط الفني والاعلامي. في الاشهر الاخيرة انفرد في منزله الخاص، عانى بصمت من اوجاع مرض احتمله وحده.

"ابو الزوز"، كما يحب ان يناديه محبوه، لم يكن مجرد ابن لعاصي وفيروز، بل كان ابن الحرب، ابن الشارع، ابن الاسئلة التي لا تهدأ.

بالتأكيد هذه السطور، لا يمكن ان تفي في التعريف والاحاطة بشخص زياد الرحباني، الانسان والمناضل والفنان.

تعود فيروز اليوم في حزنها لترنم الى ابنها:

"وشو الدني يا بني، وشو طَعم الدني،
ان ما هَبجتْ وجي بإيديك الحرير،
ومن يوم هالغيبة والله يسامحك،
عم فرفط بهالفل عم قطف رِيحان،
عم بستعير من السما اجمل لوَان،
وخرطش ع هالحيطان لنو ملامحك،
وهالقلب عم حفو على جْرَيْن السرير،
عم مرمغو بلعبك بمطارحك بفراشك،
بريحة ريشات جوانحك،
بغبرة حوافر حصانك هالزغير يا بني"

مما قاله

- شعب بيشرب قهوة كتير لازم يكون اوعى من هيك
- ليتهما يعرفان ان لحظة العمر الاخيرة قد تنزل علينا تأخذنا ونحن نتخاصم
- ما تقلي طول بالك، هيك اطول شي
- هيدا رأيك؟ ايه وشو عم يعمل عندي؟
- كم بكرا صار مارق من وقتها لليوم؟ وبعدنا ما عرفنا بالنسبة لبكرا شو؟
- فكرنا يلي راح منيح، طلع منيح يلي راح
- الله خلقك انسان، ليش مصر عالحيونة؟
- بتصفي قلبك، بتصفي نيتك، بتصفي أهبل
- الحرية مش إنك تحكي، الحرية انك ما تخاف تحكي
- نحن شعب ما بينقهر، نحن شعب بيتعود
- الوطن مش مطار بنروح ومنرجع عليه، الوطن شي بيمشي معنا وين ما رحنا
- في ناس بينهم وبين الفهم سوء فهم
- البسيط متى عرف انه بسيط لم يعد بسيطا
- لا تعش حياة لا تشبهك ولا تقل كلاما لا يمثلك ولا تقبل ان تشارك بمعركة ليست لك وكن انت دوما والسلام
- ما حدا مبسوط ونيالك يا ما حدا
- لما تحتاج حدا وما تلاقيه جنبك رح تمر بمحنة عويصة بس لما تخلص رح تستنج انك ما كنت بحاجته
- اليس في كل ثانية من الحياة انسان يضحك؟ اذن في الارض ضحك متواصل
- بَعد 5 دقائق من ولادتك، سيقررون اسمك وجنسيتك ودينك وطائفتك وستقضي طول حياتك تقاتل وتدافع بغباء عن اشياء لم تختارها
- في دنيانا يا امي لا يوجد فستان بشع، ما دام لكل فستان واحدة تحب ان ترتديه